

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 4 (2009) : 153 - 160
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

إشكالية جمع المعطيات في الدراسات المختصة بالطفولة

أ/ فوزي علاوة جامعة المسيلة

تمثل فئة الأطفال مستقبل المجتمع فهم رجال الغد، وصانعوا المستقبل، لذا فمن واجبنا تعهدهم بالحماية والرعاية لضمان مستقبل أفضل، ولعل من أهم أوجه العناية بهذه الفئة من المجتمع هو محاولة تشخيص ومعالجة أهم المشاكل التي قد تعترض وتعيق نموها النفسي والاجتماعي السليم، وذلك عن طريق القيام ببحوث علمية مختصة بهذه الفئة في مختلف العلوم الإنسانية والاجتماعية، هذه الأخيرة ركزت اهتمامها بشكل كبير على مجتمع البالغين ومشاكله، وتم لأجل ذلك تطوير الكثير من المناهج والتقنيات التي تسمح بالدراسة العلمية والموضوعية لكثير من الظواهر الإنسانية والاجتماعية الخاصة بمجتمع الكبار كحركة التصنيع، الهجرة، والاتصال...الخ، بالمقابل فان اهتمامها بمجتمع الأطفال كان محدودا، لذا فالمتخصصين في العلوم الإنسانية والاجتماعية مدعوون للالتفات إلى هذه الفئة ومشاكلها، لكن السؤال المطروح هو هل يمكن دراسة الطفل بنفس طريقة دراسة البالغ؟

في حقيقة الأمر ومن خلال جهدنا المتواضع في الالتفات إلى هذه الفئة،من خلال مجموعة من الدراسات حول ظاهرة عمل الأطفال، وجنوح الأحداث، واجهنا الكثير من الصعوبات لاسيما المتعلقة بالجانب المنهجي،وبالخصوص الدراسة الميدانية التي تعتمد على جمع المعطيات مباشرة من المبحوثين الذين هم أطفال مختلفين عن الكبار،فكان لابد علينا من تكييف تقنيات جمع المعطيات من ملاحظة ومقابلة واستمارة، لكي تكون أكثر مصداقية في جمع المعلومات من مجتمع الأطفال،وخاصة إذا علمنا بان مرحلة الطفولة تختلف حسب مراحل نموها،فتعبير الطفل عن مشكلة ما في مرحلة الصبا يختلف عن التعبير في مرحلة الطفولة المتأخرة، بالإضافة كذلك إلى استعمال مجموعة من الطرق الأخرى لجمع المعطيات عن الطفل مثل الاختبارات الإسقاطية، واختبار تكملة النواقص، وتحليل العاب الأطفال

ورسوماتهم...الخ.

-1- تحديد معني الطفولة وأهميتها: بادئ ذي بدء لا بد من تحديد معنى مرحلة الطفولة، وبالخصوص الجانب الاجتماعي، وذلك للسماح بقيام دراسات اجتماعية جادة علي غرار الدراسات النفسية والانثربولوجية المعتبرة لمرحلة الطفولة.

- تعرف الطفولة بأنها: " فترة الحياة التي تبدأ من الميلاد حتى الرشد، وهي تختلف من ثقافة لأخرى فقد تنتهي الطفولة عند البلوغ أو عند الزواج، أو يصطلح علي سن محددة لها" [1]. إذن فحسب هذا التعريف فان مرحلة الطفولة تبدأ من الميلاد، لكن نهايتها مختلف حولها، وذلك من خلال اختلاف الثقافات، واختلاف الدارسين لهذه المرحلة، فمنهم من اعتمد في فهمها علي أساس نفسي، وآخرون اعتمدوا على أساس زمني، والبعض اعتمدوا على أساس اجتماعي، فكان تناول الطفولة كما يلي:

*** علي أساس نفسي: ويري أصحاب هذا الرأي: "أن عملية نمو الشخصية عملية نفسية توضع دعامتها في مرحلة الطفولة، وترتبط كل مرحلة بمواضيع جسدية " [2]**

*** علي أساس زمني: ومن أهم رواد هذا الاتجاه عالم النفس " جوردن البورت" الذي قام بوضع مخطط لطور الطفولة يعتمد على التقسيم الزمن: "فحدد طور الطفولة علي أساس العمر الزمني، وأنكر أن هذا الطور يقوم على مواضيع جسدية " [3]**

*** علي أساس اجتماعي: يرى أصحاب هذا الرأي أن طور الطفولة يتحدد استنادا على نوع العلاقات بين الطفل وا يطين به، والذين يتم التفاعل معهم، ويتزعم "تالكوت بارسونز "هذا الرأي ويرى: "أن الانتقال من طور الطفولة إلى طور الرشد أشبه بتطور المجتمعات من مرحلة البساطة والبدائية إلى مرحلة التعقيد، والتراكم والتماسك العضوي، أي تحول علاقات الشخص مع الموضوعات الاجتماعية من البساطة إلى التعقيد كلما كبر واتسعت علاقاته"[4]، وكما تضاربت الآراء في تحديد**

نهاية هذه المرحلة، اختلف كذلك العلماء في تحديد أي فترة من فترات تطور الطفولة هي أكثر أهمية، فبينما أكد عالم النفس "سيغموند فرويد" على أهمية السنوات الخمس الأولى من حياة الطفل والتي يقضيها مع أسرته، أكد عالم الاجتماع إميل دوركايم على أهمية مرحلة

الطفولة المتأخرة، والذي يبدأ عند بلوغ الطفل السابعة من عمره، أي بعد اتصال الطفل بالعالم الخارجي.

ومن خلال جهودنا المتواضعة لدراسة بعض المشاكل الاجتماعية للطفل، فقد ركزنا على المرحلة التي تسمح للطفل بالاتصال بالعالم الخارجي وتكوين علاقات اجتماعية خارج الأسرة، وبالتالي فان مرحلة الطفولة التي تتمحور حولها مداخلتنا هي مرحلة الطفولة المتأخرة، والتي أكد إميل دوركايم أنها تبدأ من عمر السابعة تقريبا.

2- الاتجاه الأمثل لدراسة الطفل اجتماعيا: إن الدعوة إلى الاهتمام بدراسة الطفل، وقيام تخصص علم الاجتماع الطفولة لا يعني بأي حال من الأحوال الدعوة إلى دراسة مرحلة الطفولة باعتبارها مرحلة مستقلة عن الظروف والمؤسسات الاجتماعية الأخرى كالأسرة، المدرسة، جماعة الرفاق، والمؤسسات الدينية والإعلامية...الخ، فمثلا فإن الفهم الأعمق لوضع الطفل في الأسرة معناه: "أن نفهمه كعنصر وظيفي في الجماعة الأسرية، وان ندرس تاريخ هذه الجماعة، ويتضمن ذلك دراسة نشأة الوالدين، والظروف التي أثرت في هذه النشأة، وذلك من اجل أن نحصل على فهم أفضل وأوضح لتجارب الطفل داخل الأسرة"[5] ولكن هذا لا يجب أن يمنع محاولة فهم الطفل اجتماعيا في حد ذاته إلى جانب التنشئة الاجتماعية وذلك من خلال التركيز على جمع المعطيات الخاصة بالدراسة من الطفل مباشرة، وليس فقط الاكتفاء بجمع هذه المعطيات في إطار مجتمع البالغين من منظور التنشئة الاجتماعية للطفل.

-3- أهم وسائل جمع المعطيات في الدراسات المختصة بالطفولة: مما لا شك فيه أن طرق جمع المعطيات من مجتمع بحث يتكون أساسا من الأطفال هي تقريبا نفسها طرق جمع المعطيات من مجتمع البالغين، لكن الإشكالية التي واجهت الكثير من المتخصصين بعلم الاجتماع الطفولة أثناء عملية جمعهم للمعطيات هي إلى أي مدى يمكن الوثوق بمعلومات مصدرها الطفل؟ وإلى أي مدى كذلك يمكن للباحث كسب ثقة الأطفال؟. وفيما يلي مجموعة من التقنيات التي استخدمناها في جمع المعطيات من مجتمع أطفال في مجموعة من الدراسات التي قمنا بها سابقا.

3–1 المقابلة: وهي من تقنيات جمع المعطيات وتعتمد على حوار لفظي يجريه الباحث مع المبحوث من خلال مجموعة من الأسئلة بهدف الحصول على البيانات اللازمة لبحث معين، وتعرف كذلك "بأنها تقنية مباشرة تستعمل من أجل مساءلة الأفراد بكيفية منعزلة، ولكن في بعض الأحيان مساءلة جماعات بطريقة نصف موجهة تسمح بأخذ معلومات كيفية بهدف التعرف العميق على الأشخاص المبحوثين"(6)، ومما لاشك فيه أن نجاح هذه التقنية يعتمد بدرجة كبيرة على براعة الباحث في إدارة المقابلة، وتذليل الصعوبات التي قد تعيق السير الحسن لها، وكما هو معلوم فإن المبحوث يشكل جزءا أساسيا في عملية جمع المعطيات لذا فلابد من التعامل معه بحذر، فما بالك لو كان هذا المبحوث قاصرا لم يصل إلى سن البلوغ، فهنا على الباحث أن يكيف المقابلة لكي يضمن جمعا أدق، وأكثر موضوعية للمعلومات اللازمة لبحثه، ويتم ذلك من خلال مجموعة من الإجراءات أهمها:

1– أن يكون مجتمع البحث المختار من طرف الباحث ضمن مرحلة عمرية يكون فيها بمقدور الطفل التعبير عن أرائه وأفكاره بطريقة سهلة وسلسة، لأنه من الصعب القيام بمقابلة مع أطفال في فترة عمرية مبكرة قد تقل عن الثماني أو سبع سنوات، وبناءا على ذلك فالأحسن للباحث أن يختار مجتمع بحثه ضمن مرحلة الطفولة المتأخرة،ورغم أن هناك من الباحثين من حاول القيام بمقابلة أطفال في سن مبكرة إلا أن أغلب الباحثين اتفقوا على: "أن مرحلة الاستقرار اللغوي هي المرحلة الأخيرة من مراحل امتلاك الطفل للغة والتي تبدأ من سن السادسة أو السابعة أو على أكثر تقدير من الثامنة تبعا لاختلاف الأفراد".(7)

2– الباحث مطالب بأن يبتعد قدر الإمكان عن الثقافة التقليدية التي تحدد علاقة الطفل بالكبار، وإذا لم يتمكن الباحث من ذلك فمما لاشك فيه فإن إجابات الطفل أثناء المقابلة لا تخرج عن إطار الاحترام والتقدير وربما الخوف من الباحث، وبالتالي إمكانية تقديم معلومات غير صحيحة يكون هدف الطفل من خلالها محاولة إرضاء الباحث وعدم مخالفته في طرحه. ولكي يتمكن الباحث من تخطي هذه الصعوبة، فهو مطالب – إن أمكن – بتكوين علاقة تمهيدية مع الطفل المبحوث تتخللها مقابلات أولية ودية من الأفضل أن يكون موضوعها عاما بعيدا عن محتوى البحث لكسب ثقة الطفل، وذلك بهدف التحضير لإجراء

المقابلة النهائية بطريقة أنجع، فشلا إذا كان الباحث بصدد إجراء مقابلة مع مجموعة من الأحداث الجانحين في مؤسسة إصلاحية، فإن من الصعب عليه الحصول على معلومات من هؤلاء الأحداث الذين هم في غالبهم ثائرين ومتمردين على المجتمع لذا فعليه ولكي يضمن الوصول إلى معلومات أكثر دقة، فهو مطالب مثلا بإجراء زيارات دورية لهؤلاء الأحداث مرفقة بهدايا – إن أمكن – بغرض كسب ودهم قبل إجراء المقابلة النهائية.

ولذلك وبهدف إبعاد أجواء المقابلة عن الثقافة التقليدية التي تحكم علاقة الطفل مع الكبار، قد يلجأ الباحث إلى طرق أخرى كأن يستعين بأطفال آخرين لإجراء المقابلة بعد تدريبهم، وذلك في حالة ما إذا كان محتوى المقابلة بسيطا وقصيرا.

3– مما لاشك فيه فإن المقابلة تختلف حسب اختلاف الأشخاص الذين نقابلهم، فالمقابلة العلاجية التي يقوم بها المتخصص الطبي أو النفساني تركز على الحالات الغير سوية أو المرضية، لكن بالمقابل فإن المتخصص الاجتماعي قد يقابل حالات سوية، وأخرى غير سوية، وبالتالي فغنه مطالب بالإطلاع على المشكلات الاجتماعية والنفسية التي قد يعاني منها المبحوثين، وفهم هذه الحالات التي قد يتصف الطفل كأن يكون مثلا خجولا ومنعزلا، أو شديد الحساسية والانفعال، أو يعاني من حالات خوف من الآخرين، أو نقمة وكراهية للمجتمع ا يط به، كما لا يجب إغفال تدريب المعاونين على طريقة التعامل مع هذه الحالات.

4– على الباحث مراعاة طريقة تسجيل المقابلة، فالطفل ليس كالراشد بإمكان الباحث إفهامه بطبيعة المقابلة وهدفها، فالطفل إن قمت بتسجيل فحوى المقابلة بمرأى منه، فإن ذلك سيشوش أفكاره، ويشعره بالقلق، وربما الخوف من الباحث، وبالتالي عدم إتمام المقابلة فمثلا أثناء مقابلة قمنا بها مع مجموعة من الأطفال العاملين بغرض إنجاز دراسة حول ظاهرة عمل الأطفال في الجزائر تفاجئنا بهروب الأطفال بمجرد قيامنا بإظهار ورقة وقلم بغرض تسجيل المقابلة، ولذا قد يعتمد بعض الباحثين على الذاكرة أثناء المقابلة وهو ما يحتاج إلى جهد من طرف الباحث، إلا أن الباحث قد تخونه الذاكرة في بعض الأمور التي قد تكون مهمة، وعليه فإن أنسب طريقة لتسجيل المقابلة هو استعمال آلة التسجيل، خاصة مع توفر التكنولوجيا

اليوم في هذا المجال من آلات حديثة للتسجيل، وبالتالي تسمح للباحث بنقل كل فحوى المقابلة بدون استثناء.

ويرى مُحَمَّد سعيد فرح الذي له اهتمامات بعلم الاجتماع الطفولة، أن خصائص المقابلة التي تجري مع الطفل هي كما يلي:

1- وعي الطفل الكامل بأن الباحث ليس شخصا مسيطرا عليه، بل إنه شخص يهتم به وبأفكاره ويتقبل اتجاهاته ومشاعره قبولا حسنا.

2- ومن ثم فعلى الباحث أن يفهم الطفل أنه محور اهتمامه الحقيقي، وأن مشاعره وأفكاره محا احترامه.

3- ضرورة استمرار العلاقة بينهما.

4- إقامة علاقة وطيدة بينهما وحث الطفل على التحدث بلا حرج، ودون مقاطعة، أو توجيه مباشر.

3-2- الملاحظة: تعرف الملاحظة بأنها " توجيه الحواس والانتباه إلى ظاهرة معينة، أو مجموعة من الظواهر رغبة في الكشف عن صفاتها، أو خصائصها بهدف الوصول إلى كسب معرفة جديدة عن تلك الظاهرة أو الظواهر"[8] وتقنية الملاحظة فعالة في جمع المعلومات في الدراسات الخاصة بالطفولة، لأنها تسمح للطفل بالتصرف بتلقائية، على خلاف التقنيات الأخرى التي تجعله مقيدا، "وقد استخدمت الملاحظة كطريقة هامة لجمع البيانات عن عالم الأطفال أثناء مشاهدة سلوك الطفل في المواقف المختلفة، وأثناء تفاعله مع رفاق سنه، وإخوانه ووالديه، أو تنافسه وتعاونه مع الآخرين، أو تصرفاته في المواقف

التي تتطلب الاعتماد على الغير، أو المواقف التي يبدي فيها الرغبة في الاستقلال، أو الانقياد أو التسلط" [9].

وبناءا على ما سبق فعلى الباحث المتخصص بالطفولة أن لا يهمل هذه التقنية الهامة، وأن يعتمد عليها بشكل كبير، ومن الأحسن أن يعتمد على الملاحظة المتسترة التي تقوم على مبدأ عدم إحساس المبحوث -موضوع الملاحظة- بوجود الباحث -القائم بالملاحظة- وذلك بهدف عدم إرباك الطفل وإشعاره بالخوف، وقد يلجأ الباحث للملاحظة بالمشاركة في بعض

الدراسات التي تسمح بتواجده مع المبحوثين، كدراسة عمل الأطفال التي قد تسمح للباحث التواجد مع الأطفال على أساس أنه عامل معهم.

3-3- اختبار تكملة النواقص: هي الأخرى تقنية تستخدم لجمع بيانات حول الطفل، وذلك من خلال إعطاءه بعض الجمل أو الصور الناقصة، ويطلب منه تكملتها، وفي العموم يمكن اللجوء إلى هذا الاختبار في حالات يكون فيها الطفل في مرحلة مبكرة من عمره، بحيث يكون من الصعب عليه التعبير عن أفكاره بصورة واضحة، لأن هذا الاختبار لا يتطلب من الطفل الاسترسال في وصف وضع معين، بل يكتفي فقط بجملة أو مجموعة من الكلمات يستعين بها لإكمال ما هو ناقص برأيه، وهو ما يساعد الباحث بشكل كبير في فهم اتجاه ورأي الطفل في قضية ما.

الخاتمة:

علم الاجتماع هو علم إنساني من المفروض أن يهتم بالإنسان في كل مراحل عمره سواء كان طفلا أم راشدا، لكن الملاحظ هو ندرة الدراسات الاجتماعية حول موضوع الطفولة، حتى أن بعض الدراسات التي اهتمت بهذا الموضوع من خلال التنشئة الاجتماعية للطفل كان هدفها هو فهم مجتمع البالغين، ومن بين أهم الأسباب التي تدعو إلى الاهتمام بعلم الاجتماع الطفل هو أنه مجال خصب للدراسات، نتيجة لما يتعرض له اليوم عالم الطفولة من مشاكل وصعوبات كثيرة نذكر على سبيل المثال منها، استغلال الطفولة في أعمال شاقة، أو الانتهاك الجنسي لها، أو العنف الأسري، أو الانحراف الذي قد يتعرض له الطفل... الخ.

وبالمساهمة في حل هذه المشكلات التي يعاني منها الطفل اليوم، أو الحد من تأثيراتها السلبية قد يسهم في توفير حياة ملائمة لرجل الغد السليم والمتوافق نفسيا واجتماعيا.

وفي الأخير نقدم مجموعة من التوصيات للمتخصصين في العلوم الاجتماعية عموما، وعلم الاجتماع خصوصا:

- الاهتمام بالدراسات الخاصة بالطفولة في العلوم الاجتماعية، وخاصة تطوير ميدان علم الاجتماع الطفولة

- العمل على تطوير منهجية خاصة بهذا النوع من الدراسات، وذلك مما لاشك فيه

يتأتى من خلال تراكم الدراسات الميدانية.

– إمكانية الاستفادة من العلوم الأخرى، وبالخصوص علم النفس والذي هو متطور مقارنة بعلم الاجتماع في دراسة الطفل.

– العمل على تنظيم ملتقيات وأيام دراسية خاصة بعلم الاجتماع الطفولة.

الهوامش:

(1)– محمد عاطف غيث: قاموس علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية (مصر)، بدون سنة نشر، ص 55.

(2) – محمد سعيد فرح: الطفولة والثقافة والمجتمع، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1993، ص 17.

(3) – نفس المرجع، نفس الصفحة.

(4) – نفس المرجع، ص 18.

(5) – محمد سعيد فرح، المرجع السابق، ص 37.

(6) – موريس أنجرس: منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية، ترجمة (بوزيد صحراوي، كمال بوشرف، سعيد سبعون)، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2004، ص 197.

(7) – محمد سعيد فرح، المرجع السابق، ص 167.

(8) – بوحوش عمار الذنيبات محمد: مناهج البحث العلمي وطرق إعداد البحوث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999، ص 81.

(9) – محمد سعيد فرح، المرج السابق، ص 171.